الفصل الأول

الدكتور مصطفى الشكعة
صاحب «مناهج التأليف و«إسلام بلا مذاهب»

مثل

الدكتور مصطفى الشكعة جيلا رائدا من الأساتذة والعلماء الأجلاء، الذين أخلصوا للعلم، وأعطوه حياتهم كلها. فمنحهم الثقة والحب والاحترام. لقد استطاع الدكتور الشكعة وزملاؤه الكرام أن يرسوا - فى المحيط الجامعى - قواعد الكفاءة العالية، وأن يحافظوا على الإجادة والتجويد، والأداء المتميز لرسالتهم كتربويين وأساتذة جامعيين. عملوا على تنشئة أجيال تلو أجيال من تلاميذهم على حب الثقافة، والحفاظ على اللغة، والالتزام بقيم الحق والعدل والجمال والانتماء. وعلى هذا: فإن رحيل واحد من هؤلاء، وعلى رأسهم الدكتور الشكعة يمثل خسارة هائلة، وفقدان قيمة كبيرة، لاسيما فى الوقت الراهن الذى تمر فيه البلاد بظروف نحن أحوج فيها إلى أمثاله من حكماء الأمة وعقولها المفكرة. ونستطيع أن نؤكد هنا أن الرجل لم يركب الموجة فى أية مرحلة من مراحل حياته، بل لقد سبح ضد التيار فى كثير من الأحيان. لم يهادن أو ينافق أو يمالئ أحدا أيا ما كان. بل كان يجهر برأيه الذى عادة ما كان يخالف فيه وجهة النظر الرسمية. فى هدوء ووضوح ورسوخ واعتدال.

ومن المصادفات العجيبة، أن يرحل الآن صاحب كتاب «إسلام بلا مذاهب»، في هذا الظرف الذى تعانى منه الأمة من مصادمات بين الفرق المختلفة، والتى كثيرا ما حذر الرجل منها، وحاول فى كتابه هذا التقريب بينها!

نشأته وتدرجه العلمى

ولد الدكتور مصطفى محمد الشكعة فى شهر أغسطس سنة ١٩١٧ بقرية «محلة مرحوم» التابعة لطنطا بمحافظة الغربية، وقد تلقى تعليمه الأولى فى مدارسها الابتدائية وأيضا جانبا من تعليمه الثانوى، إلا أن رحيل والده، فى أوائل الثلاثينيات من القرن الماضى، جعله ينتقل للإقامة مع شقيقه الأكبر الموظف بالقاهرة. ليستكمل تعليمه الثانوى بمدارسها. التحق الدكتور الشكعة بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) وتخرج فيها عام ١٩٤٤، وقد حصل على درجة الدكتوراه بعد ذلك بعشر سنوات (١٩٥٤).

وقد عمل عقب حصوله على درجة الليسانس فى اللغة العربية وآدابها مدرسا فى التعليم الثانوى فيما بين عامى ١٩٤٤ و١٩٤٩، أما النقلة الثانية فى محيط حياته العملية فقد تمثلت فى عمله خبيرا بالتخطيط الاجتماعى فيما بين عامى ١٩٤٩ و١٩٥٦، وحو العام الذى التحق فيه بالسلك الجامعى مدرسا للأدب العربى بكلية الآداب جامعة عين شمس، التى تسنم فيها قمة وظائفها ليعتلى كرسى عمادتها عام ١٩٧٦.

ومن بين المهام العامة والوظائف الأخرى التى قام بها الرجل، عمله كمستشار ثقافى لمصر فى واشنطن بالولايات المتحدة، فى النصف الأول من ستينيات القرن الماضى (١٩٦٠ - ١٩٦٥)، فأفاد جيلا من خيرة الباحثين والعلماء بعلمه وخبرته ومشورته. كما كان الرجل عضوا «بمجمع البحوث الإسلامية»، وعضوا «بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية» بوزارة الأوقاف المصرية، والذى ترأس فيه «لجنة التعريف بالإسلام». كما كان أيضا عضوا «بلجنة الحوار الإسلامى المسيحى» بالأزهر الشريف.

قامة علمية شامخة

الملاحظة العامة التى أستطيع أن أبديها وأنا أطالع المسيرة العلمية والأكاديمية لهذا العلم الشامخ، أنه لم يشغل نفسه إلا بالتأليف العلمى الجاد فى مجال تخصصه، أى فى مجال الدراسات الأدبية والإسلامية، وقد اتسمت مؤلفاته بالإحاطة والشمول والعمق، وهى فى أغلبها دراسات مستفيضة تقع تحت ما يعرف فى التأليف بالمطولات.

أما الملاحظة الثانية فهى ندرة ما ألفه من مقالات فى المجلات الثقافية العامة، سواء أكانت أدبية أو دينية، كما لم يكتب أيضا كتبا لنشرها فى السلاسل الشعبية المعروفة فى مصر مثل «اقرأ» أو «كتاب الهلال» أو «المكتبة الثقافية» أو غيرها، شأن غيره من زملائه الجامعيين، ولا تعليل عندى لهذا إلا إنه كان يضن بوقته وجهده أن يصرفه فى غير مكانه

الذى يستوجبه ويستأهله.. وقد تَعْجَب أخى القارئ من مصدر استقائى واستقرائى لهذا المُسَوِّغ أو التعليل، الذى استشففته من صياغة وفحوى إهدائه واحدا من مؤلفاته الطويلة لأفراد أسرته- وهو نادرا ما يصنع ذلك- والذى جاء على النحو التالى: «إن العمل فى تأليف هذا الكتاب وإخوته من كتبى الأخرى قد استغرق سنوات غير قليلة من العمر. وإن قدرا كبيرا من الوقت الذى استحوذ عليه كان ملكا لأفراد أسرتى الصغيرة، وحقا من حقوقهم، منحونى إياه فى رضا وسماحة ورحابة صدر».

أما الملاحظة الثالثة فتتعلق بتوزيع جهده العلمى بين مجالين أو حقلين، وهما الدراسات الأدبية والدراسات الإسلامية، وقد استطاع أن يجد المناطات المناسبة بينهما. فآخر دراسة له، على سبيل المثال، التى كانت حول «الرافعى وإعجاز القرآن»، نستطيع أن ندرجها تحت كل من الدراسات الأدبية واللغوية والبلاغية من ناحية، كما يمكن أن ندرجها من ناحية أخرى تحت الدراسات الإسلامية، ونستطيع أن نطبق هذا أيضا على معظم دراساته الأخرى. وأستطيع أن أؤكد هنا تأثير نشأته الأولى فى كنف شقيقه الأكبر، والذى كان عضوا فى «جمعية الشبان المسلمين»، ثم انخرط بعد ذلك فى «جماعة الإخوان المسلمين»، فتابعه الرجل فى ولائه وانتمائه.

وقد نال الدكتور الشكعة العديد من أوجه التكريم الذى يستحقه أمثاله، ممن أعطوا بلدهم وعالمهم العربى والإسلامى من عصارة فكرهم

وجهدهم الكثير والكثير، كما تحرج على يديه أجيال تلو أجيال فى مصر والبلاد العربية التى قاد فى إحداها كلية الدراسات العليا[1]. فمن تلاميذه المبرزين - كما علمتُ من الأستاذين: الدكتور محمد يونس عبد العال (آداب عين شمس) والدكتور خالد فهمى (آداب المنوفية) الدكتور أحمد إبراهيم هندى والدكتور على محمد هنداوى والدكتور خالد النبوى والدكتور كمال نبهان، والأستاذ الدكتور محمد محمد الطاووسى رئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب - بجامعة عين شمس، وغيرهم. ومن البلاد العربية الدكتور محمد هيشور (الجزائر) صاحب كتاب «سنن قيام الحضارات وسقوطها فى القرآن الكريم»، والتى كانت فى الأصل أطروحته للحصول على درجة الدكتوراه تحت إشراف الدكتور الشكعة - رحمه الله.

وقد حصل الراحل الكريم - رحمه الله - على عدد كبير من الجوائز وأوجه التكريم، ومن أبرز هذه الجوائز: وسام الجمهورية مرتين فى عامى ١٩٥٩، و١٩٧٧، ثم جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ١٩٨٩.

من مؤلفاته العلمية

- من بواكير مؤلفاته العلمية كتابه «فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين»، مكتبة الأنجلو المصرية. وله أيضا «بديع الزمان الهمذانى

(١) وهى كلية الدراسات العليا بجامعة الإمارات العربية المتحدة، حسبما جاء عقب توقيعه فى نهاية «مقدمة الطبعة السادسة» من الكتاب بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٨٨م.

رائد القصة العربية والمقالة الصحفية»، كما اختص شاعر العربية الأكبر المتنبى بكتاب تحت عنوان: «أبو الطيب المتنبى فى مصر والعراق».

ومن مؤلفاته فى الثقافة الإسلامية كتاب بعنوان: «معالم الحضارة الإسلامية». وله أيضا فى هذا المجال كتاب بعنوان «مقالات فى الدراسات الإسلامية» نشره باللغة الإنجليزية. ومن أعماله العلمية المُطولة كتابه المعنون بـ «الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية»، مكتبة الأنجلو المصرية (١٩٦٨). أما كتابه العمدة فى بابه فقد جاء تحت عنوان «مناهج التأليف عند العلماء العرب» وقد صدر عن «دار العلم للملايين» فى بيروت عام ١٩٧٤.

كما تتبع الجذور الفكرية وأصولها الإسلامية، فى كتابات عبد الرحمن ابن خلدون فى مؤلف تحت عنوان «الأسس الفكرية فى فكر ابن خلدون ونظرياته»، كما ألف أيضا مصنفا حول كتاب «صبح الأعشى» للقلقشندى بعنوان: «الأصول الأدبية فى صبح الأعشى». كما أن له دراسة بعنوان: «مصطفى صادق الرافعى كاتبا عربيا ومفكرا إسلاميا»، كما كتب أيضا دراسة أخرى تحت عنوان «الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه».

ومن واقع عمله وخبرته التعليمية فى جامعات مصر، وأم درمان بالسودان، وجامعة بيروت العربية، وجامعة الإمارات العربية، فقد كتب كتابا قيما تحت عنوان: «التربية والتعليم فى العالم العربى» باللغة الإنجليزية.

وتحت العنوان الجامع: «الأئمة الأربعة»، نشر الكاتب أربعة كتب صدرت كلها عن ثلاثة دور للنشر في مصر ولبنان هي: «دار الكتب الإسلامية» و«دار الكتاب المصرى» (القاهرة)، «ودار الكتاب اللبنانى» (بيروت). وكانت عناوينها على النحو التالى: «الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان» (١٩٨٣)، و«الإمام مالك بن أنس» (١٩٨٣)، و«الإمام محمد بن إدريس الشافعى» (١٩٨٤)، وأخيرا «الإمام أحمد بن حنبل» (١٩٨٤).

أما كتابه «جلال الدين السيوطى: مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية»، الدار المصرية اللبنانية (١٩٩٤)، فقد جاء تحت العنوان الجامع: «موسوعة الدراسات السيوطية»، إلا إننى لم أعثر على بقية هذه السلسلة، ولا أدرى إن كان قد طبع بعد هذا الجزء الأول أجزاء أخرى أم لا.

أما آخر ما وقع تحت أيدينا من إنتاجه العلمى فهو كتاب «الرافعى وإعجاز القرآن» (٢٠٠٣)، الذى صدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بتكليف من وزير الأوقاف الأسبق الدكتور محمود حمدى زقزوق وفضيلة الدكتور عبد الصبور مرزوق نائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – رحمه الله.

إسلام بلا مذاهب.

أما كتابه الذى كان له دوىّ هائل فهو: «إسلام بلا مذاهب» الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٦٠، ثم توالت طبعاته فيما يزيد على أربع عشرة طبعة، كان آخرها ما صدر عن الدار المصرية اللبنانية عام (٢٠٠٥)،

وطبع ضمن سلسلة «القراءة للجميع»، وقد ذاعت شهرة هذا الكتاب فى الأوساط الدينية والسياسية، حتى تعرف إليه الرجل العادى المتواضع الثقافة، سواء فى مصر أو فى البلاد العربية. وقد وضع فى هذا الكتاب تصوره حول ما ينبغى أن يكون عليه مسلم اليوم: بعد أن تفرَّق المسلمون فرقا كثيرة، تحت مذاهب بلا عدد، مما جعله يؤلف هذا الكتاب تحت ذلك العنوان اللافت للنظر، لاسيما وأنه قد ألف أيضا عن أئمة المذاهب الإسلامية الكبيرة المعروفة بين المسلمين. منذ ظهورهم وإلى اليوم.

وكتاب «إسلام بلا مذاهب»، قرَّظه فضيلة الأمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر الأسبق - رحمه الله - حيث قال فضيلته: ليست الدعوة إلى تقريب المذاهب الإسلامية دعوة إلى بقاء مذهب على حساب مذهب، ولكنها دعوة إلى تنقية المذاهب من الشوائب، التى أثارتها العصبيات والنعرات الطائفية، وأذكتها العقلية الشعوبية... ثم يقول فضيلته فى نهاية مقدمته: وإن كتاب «إسلام بلا مذاهب» هو محاولة من تلكم المحاولات التى اضطلع بها المصلحون أخيرا لِلمِّ الشعث، وتأليف القلوب، وتوحيد الصف.

ويقرر الشيخ شلتوت - بعد اطلاعه على الكتاب - إنه أولا: عرض العقيدة الإسلامية عرضا بَيِّنا واضحا مُيَسَّرا يتفق مع ما جاء به القرآن الكريم والسنة الصحيحة، وأبان بأسلوب سهل موافقة هذه العقيدة للفطرة الإنسانية السليمة، وملاءمتها لحكم العقل الناضج المفكر، ومجانبتها للتعقيد الفلسفى الناشئ من خطأ الفكر وفساد الرأى.

ثانيا: تعـرض لدفع بعض الشـبه التى كثر حولها الجـدل فى الأيام الأخـيرة، كتعدد الزوجات ومسـألة الرِّق. فأبان وجهة نظر الإسـلام فـى هذه الموضوعات، وقارن بين ما جاء بـه غيره من الأديان وما عليه العمـل الآن فى بعض الـدول التى يُظَنُّ أنها بلغت مـن الحضارة ما لم تبلغه أمة. وكان عرضه هذا عرضا جميلا، ورده قويا يقنع كل من طلب معرفـة الحق ورغب فيه. ثالثا: وهو المقصـود الأصلى من كتابه، وهو الكلام عن الفرق الإسـلامية، الغُلاة منهم والمعتدلين، فقد تكلم عن كل فرقة، وكيف نشـأت، وكيف تطورت، وقد أعجبنى منه أنه عالج هذا الموضوع الشـائك بأسـلوب المؤرخ الأمين، ولكن فى هوادة ولين لا تثير فتنـة، ولا تورث ضغينة، ولا تبعث عصبية، ولم ينس عند الكلام عن فرق الغُلاة أن يبين سـبب غلوهم فى رقة من يخشـى على وحدة الأمة أن تتصدع، ولاسـيما أنه تعرض للفرق التى ارتبط - ولا يزال يرتبط - تاريخها بمصرنا، ولم ينس أن يشـيد بالمواقف النبيلة الكريمة، التى وقفتهـا الفرق المتعـددة لرفعة هذا الوطن العزيز، ومـا بذلوه من دماء وأرواح فى محاربة المستعمرين وأذنابهم.

ثم يضيف الشيخ فى أسلوب أدبى بليغ: «ولقد طرَّز كتابه هذا بشىء من آداب المتأدبـين من أبناء الفرق المختلفة، فكان كتابه هذا كتاب علم وتاريـخ وأدب، لا يرى العالم فيه انحرافا عن الجادة، كما لا يرى فيه المؤرخ تحاملا على فريق لمصلحة فريق، بل هو سجل للأحداث من غير

تحيز ولا تعصب، كما يرى فيه الأديب صورة وأفكار المتأدبين. وأسلوبا معبرا عن خلجات نفوسهم فى عصور مختلفة وبيئات متعدِّدة».

وهذه الأهداف التى أشار إليها فضيلة الشيخ شلتوت. والتى استهدفها وأومأ إليها الدكتور الشكعة من خلال تأليفه لهذا الكتاب القيم. لهى من ألزم ما ينبغى أن يحرص عليه مسلمو اليوم. أمام ما يتعرضون له من فتن ومحن، سواء فى الداخل أو من الخارج. تستهدف وحدتهم وشق صفوفهم. بل تهدد - بشكل مباشر - حاضرهم ومستقبلهم ووجودهم ومصيرهم.

«مناهج التأليف عند العلماء العرب»

اشتهر هذا الكتاب، خاصة فى محيط الدارسين للحركة العلمية والفكرية العربية، منذ نشأتها الأولى وحتى استواء الحضارة العربية الإسلامية على سوقها، وإيناع شجرتها وإثمارها لتؤتى أكلها شرقا وغربا، مُحدثة حراكا علميا، أدى إلى بزوغ نجم الحضارة الغربية الحديثة. إلا إننى أعتبر هذا الكتاب على رغم ضخامته (٧٨٤ صفحة من القطع الكبير) الحلقة الثانية لكتاب له سبق أخاه تحت عنوان: «الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية»، وهو أيضا كتاب كبير الحجم (٧٨٠ صفحة من القطع الكبير) عظيم الفائدة مهد لظهور أخيه.

فإذا كان الكاتب قد تعرض فى كتاب «الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية» لحالة المجتمع العربى قبل الإسلام. ووومضات النور والحكمة عند العرب، ثم الشعر فى موكب الحضارة وما زخر به من

صفات العرب كالشجاعة والفروسية والكرم وقِرى الضيف والعفة ورعاية الجار، وكراهية مقاتلة العشيرة، وحب الأبناء وإنسانية التفكير، ثم تعرض للشعر فى عهد البعثة، والشعر فى موكب الفتوح الإسلامية، ثم الشعر فى خضم السياسة بكافة أطيافها ثم تعرض لنشأة الموشحات والزجل، ثم تعرض لأثر الشعر العربى فى أشعار الشرق والغرب. وبعد هذا اتجه لدراسة النثر سواء قبل الإسلام أم بعده، وفى هذا الباب تعرض للندوات والمناظرات والمنافرات والخطابة، وأشهر الخطباء رجالاً ونساءً. ثم تعرض لدراسة «الكتابة فى موكب الحضارة» فى عصر الرسول ﷺ، وفى عصر الخلفاء الراشدين ومن خلال ذلك تعرض للمعاهدات ونصوصها والكتابة الديوانية والكتابة الإخوانية. وعبد الحميد الكاتب ومدرسته، والفضل بن يحيى، وعمرو بن مسعدة وإبراهيم بن العباس وأبو بكر الصولى، ثم أعلام الكتاب العباسيين كالفضل بن سهل وأحمد بن يوسف وغيرهما، ثم تعرض للكتابة فى شئون الحرب، والشئون العامة وفى هذا السياق تعرض لبديع الزمان الهمذانى والخوارزمى، ثم تعرض للكتابة الإمتاعية والإخوانيات، والفكاهة فى الكتابة، ثم تعرض لإرهاصات القصة عند العرب ممثلة فى المقامة. ثم تعرض لقصة التوابع والزوابع. ورسالة الغفران للمعرى، ثم عرَّف بإخوان الصفاء، كما تعرض لقصة حىّ بن يقظان وعرَّف بمؤلفها، ثم تعرض لأثر النثر فى الآداب العالمية وانتشار اللغة العربية.

أقول إذا كان قد تعرض فى الكتاب سالف الذكر لكل هذه الموضوعات، فقد استكمل وفصَّل وأتى بأمثلة من المؤلفات المشهورة فى الكتاب الثانى «مناهج التأليف عند العلماء العرب»، لإسهامات العرب والمسلمين فى المجال الفكرى والعقلى والعلمى.

ففى الباب الأول من هذا الكتاب أرَّخ الرجل لفجر التحرك العقلى العربى، علميا وتاريخيا مع بيان لحركة التدوين. ثم تعرض فى الباب الثانى للكتابة والإنشاء مع إيراد للأمثلة البارزة. ثم تعرض لتفصيل أكبر فى الباب الثالث حينما ذكر رواد التأليف الأدبى غير المتخصص، ثم تعرض فى الباب الرابع لرواد وأعلام التأليف الأدبى المنهجى، كالجاحظ، وابن قتيبة، وأبى حنيفة الدِّينَوَرى. والمُبَرِّد، وأبى بكر الصولى، والمرزبانى. وأبى منصور الثعالبى، وغيرهم. ثم كرَّس الباب الخامس لكتابى «العقد الفريد» لابن عبد ربه، و«الأغانى» للأصفهانى، أما الباب السادس فقد أفرده لكُتُب «الأمالى». كأمالى اليزيدى، وأبى علىّ القالى، والشريف المرتضى. وابن الشجرى، وغيرهم. ثم تعرض فى الباب السابع لكُتب «طبقات الشعراء». لابن سلام الجمحى. وابن قتيبة وابن المعتز، وغيرهم. أما الباب الثامن فقد تعرض فيه للاختيارات الشعرية والحماسات (كتب الحماسة)، كما اختص الباب الثامن بدراسة كُتب التراجم. «كالفهرست لابن النديم»، و«تاريخ بغداد» للبغدادى. و«معجم الأدباء» لياقوت الحموى،

و«كُتب الوفيات»، و«خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر». ثم تعرض بإسهاب كبير فى الباب العاشر للتأليف والمؤلفين فى التراث الأدبى الأندلسى.

أما الباب الحادى عشر والأخير فقد خصصه لرصد ودراسة الموسوعات العربية ومؤلفيها، منذ ظهورها فى أدبيات التأليف العربى وحتى العصر المملوكى، وهو أزهى عصور الموسوعات العربية، ومن أبرزها: «لسان العرب» لابن منظور، و«نهاية الأرب» للنويرى، و«مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمرى، و«صبح الأعشى» للقلقشندى، ثم تعرض للمؤلفات الموسوعية عند كل من المقريزى، وابن حجر، وابن تغرى بردى، والسخاوى.

فالعلاقة إذن وثيقة بين المؤلفين اللذين يكمل أحدهما الآخر، على الرغم من اختلاف المنهج التأليفى لكل منهما.

وبعد هذه الرحلة الثرية الطويلة، والجهاد النبيل، علما وتعليما وبحثا ودرسا، ومشاركة إيجابية فى قضايا وطنه ودينه وأمته، أدى فيها الرجل دوره ورسالته، وحمل فيها الأمانة بحقها، فقد لقى ربه عن عمر يناهز الرابعة والتسعين، فى مساء الأربعاء الموافق للعشرين من أبريل سنة ٢٠١١، رحمه الله رحمة واسعة، وعوَّض مصر وأمتها العربية عن فقده خيرا.